المحاضرة السادسة عشرة

حياة المتنبي

- ٨ -

أرى ان أفضي اليكم بعد ان تكلمت على وطن ابي الطيب وعلى نسبه وعلى تحصيله وعلى روايات نبوته ، بجملة اخباره وهو في ديار الشام وفي ظلال سيف الدولة وفي مصر وفي العراق وفي بلاد فارس ، على ان تكون اخباره هذه متسلسلة ليس فيها شيء من الاقتضاب ، وكنت أحب ان اختصر الكلام على هذه الاخبار حتى اصل الى الكلام على أخلاقه وروحه ولغته وشعره وبعض نظراته الفلسفية قبل انقضاء سنتنا . ولكني لا اجد لي مندوحة عن ان أروي لكم المهم من هذه الاخبار مما له تأثير في شعره ، فستجدون في الآتي ان ابا الطيب قد شكا الحسد في كثير من قصائده ، وستجدون ان الاخبار التي سأرويها لكم لاتخلو من ارتباط بهذا الحسد الذي اكثر من الاشارة اليه في شعره . فالرجل كان محسوداً في جميع حالاته في فقره وفي غناه . —

* * *

فلننظر الى حالة ابي الطيب قبل اتصاله بسيف الدولة ، فقد علمتم انه لما نسبوا اليه انه ادعى النبوة كان عمره سبع عشرة سنة . فكان في اول امره في خشونة من عيشه ورقة من حاله ، يعوزه كل شيء . يعوزه الناعم من الملابس . والكريم من المطايا . توفي ابوه فقيراً فضرب ابو الطيب في مناكب الشام التماساً للرزق . وجال في البوادي والحواضر ومدح رجالاً من منبج وطرابلس الشام وطرسوس وانطاكية . وطبريا ودمشق وبعلبك وحمص وبعقاب لبنان . وبغير ذلك من بادية الشام وحضرها :

الفت ترحلي وجعلت ارضي ... فتودي والغريري الجلالا
فما حاولت في ارض مقاماً ... ولا ازمعت عن ارض زوالا
على قلق كأن الريح تحتي ... أوجهها جنوباً او شمالا

جال ابو الطيب في هذه الآفاق كلها ، ومدح فيها من أمّل نداه وكرمه فقد كان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فقيراً شكا فقره وتنوعت شكاياته . فمرة كانت أعصابه تهيج في شكوى الفقر :

الى اي حين انت في زي محرم وحتى متى في شقوة والى كم

ومرة كانت هذه الأعصاب تهدأ بعض الهدوء :

لله حال أرجيها وتخلفني واقتضي كونها دهري ويمطلني

لم يكن لابي الطيب في اول امره شيء من المطايا فلا مطية له الا النعل والخف ، ولا لباس له الا القطن الخشن :

لا نافضي ثقبل الرديف ولا بالسوط يوم الرهان اجهدها

شراكها كورها ومشفرها زمامها والشسوع مقودها

وقد اكثر من التنغم بقلة المطايا :

وحبيت من خوص الركاب باسود من دارش فغدوت امشي راكبا

حال متى علم ابن منصور بها جاء الزمان الي منها تائبا

نعم كان ابو الطيب يشكو الفقر على انه لم يقصر في طلب الرزق :

ضاق صدري وطال في طلب الرزق قيامي وقل عنه قعودي

ابداً أقطع البلاد ونجمي في نحوس وهمتي في صعود

ولعلي مؤمل بعض ما ابلغ باللطف من عزيز حميد

لسري لباسه خشن القطن ومري مرور لبس القرود

ولكن شعره كان يباع في سوق الكساد :

الى كم ذا التخلف والتواني وكم هذا التمادي في التمادي

وشغل النفس عن طلب المعالي ببيع الشعر في سوق الكساد

فيحكى ان علي بن منصور الحاجب الذي امله ورجاه لم يعطه على قصيدته التي فيه واولها :

(بابي الشموس الجانحات غوارب)

الا ديناراً واحداً فسميت الدينارية :

لم يقصر ابو الطيب في السعي ولكن آماله خابت عند من كان يمدحهم .

مدحت قوماً وان عشنا نظمت لهم قصائداً من أناث الخيل والحصن

فكم سعى الى حاجة ولم ينل منها شيئاً :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فقل لي في حاجة لم اقض منها على شغفي بها شروى نقير

وكم طلب الرزق لجدته ففاته هذا الرزق :

طلبت لها حظاً ففاتت وفاتني وقد رضيت بي لو رضيت بها قسما

فلا ذنب له في هذا كله ، وانما الذنب يرجع الى الذين يذكرون له الجود فلا يحصل من جودهم الا على الكلام .

أرى أناساً ومحصولي على غنم وذكر جود ومحصولي على الكلم

على انه اذاذم بعض ممدوحيه فقد حمد طائفة منهم لم يبخلوا عليه ، في جملتهم ابو العشائر .

هذه حاله وهو في ديار الشام ، شكا فيها كل شيء ، شكا فقره واخفاقه في السعي ، وكساد شعره في أسواق بعض الممدوحين ، ومع هذا كله ما كان يخلو من حسد الحساد وشماتة الشامتين وكيد الكائدين ، نعم لم يخل من حسد الحساد .

فلو اني حُسدت على نفيس لجدت به لذي الجد العثور

ولكني حسدت على حياتي وما خير الحياة بلا سرور

ولم يخل من شماتة الشامتين ، حتى في المواطن التي لا تكون فيها الشماتة الا الأُم اللؤم ، فقد شمتوا بموت جدته :

لئن لذ يوم الشامتين بيومها لقد ولدت مني لأنفهم رغما

ولا خلا من كيد الكائدين :

ان الكذاب الذي أكاد به أهون عندي من الذى نقله

* * *

فلنبحث عن أخبار ابي الطيب وهو في ظلال سيف الدولة ، فهل استمر ابو الطيب في شكوى الفقر ، هل استمر في شكوى الحسد . —

كان ابوالطيب قبل اتصاله بسيف الدولة يمدح القريب والغريب ويصطاد مابين الكركي والعندليب ، هكذا قال فيه الثعالبي وقد تحقق عندنا ذلك وبقيت هذه حالته الى سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة وهي السنة التي مدح فيها سيف الدولة وكان عمره حينئذ اربعاً وثلاثين سنة . —

كيف اتصل بسيف الدولة وكيف كانت منزلته عنده وكيف كان رأي بعض

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الشعراء ورجال الادب فيه وكم مكث في افياء سيف الدولة وما هي الاسباب التي من أجلها فارق ابو الطيب سيف الدولة .

قال ابو عبد الله ياقوت الرومي :

ولم يزل المتنبيء بعد خروجه من الاعتقال في خمول وضعف حال حتى اتصل بابي العشائر ومدحه بعدة قصائد ، فأكرمه ابوالعشائر وعرف منزلته وكان ابو العشائر والي انطاكية من قبل سيف الدولة ولما قدم سيف الدولة انطاكية قدم المتنبيء عليه ، واثنى عنده عليه وعرّفه منزلته من الشعر والادب . واشترط ابوالطيب على سيف الدولة اول اتصاله به انه اذا انشده مديحه فيه لا ينشده الا وهو قاعد ، وانه لا يكلف تقبيل الارض بين يديه ، فنسب الى الجنون ودخل سيف الدولة تحت هذه الشروط ، وتطلع الى مايرده منه وذلك في سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة ، وحسن موقعه عنده فقربه واجازه الجوائز السنيه ومالت نفسه اليه وأحبه فسلمه الى الرواض ، فعلموه الفروسية والطراد والمثاقفة . وحكي انه صحب سيف الدولة في عدة غزوات الى بلاد الروم ، منها غزوة العثاء التي لم ينج منها الا سيف الدولة بنفسه وستة أنفار احدهم المتنبيء ، واخذت الطرق عليهم الروم فجرد سيف الدولة سيفه وحمل على المعسكر وفرق الصفوف وبدد الالوف .

هذا هو اول اتصاله بسيف الدولة ، فبعد ان كان يشكو شقوته وقلة مطاياه واخفاقه في السعي وكساد شعره ، انقلبت حاله فخار في كثرة خيله وخوله :

بالشرق والغرب أقوام نحسبهم فطالعاهم وكونا أبلغ الرسل
وعرفاهم باني في مكارمه اقلب الطرف بين الخيل والخول

لقد غرق ابو الطيب في مكارم سيف الدولة الباهرات حتى ترك السرى لمن لا مال له وانعل خيله ذهبا .

تركت السرى خلفي لمن قل ماله وانعلت أفرامي بنعماك عسجدا

فكان سيف الدولة يعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار ماعدا الخيل والجواري والخلع والجوائز والاقطاعات .

اسير الى إقطاعه في ثيابه على طرفه من داره بحسامه

من هذه الاقطاعات سبعين وهي قرية بباب حلب ، وصف وهي قرية بالمعرة وكان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

له وكيل يتوكل له في داره بحجاب اسمه ابوسعيد ، فأين حاله من هذه من شقوته التي كان فيها ولا مطية له الا قدماه ، ولا لباس له الا القطن الخشن ، ولئن تكلم ابوالطيب وهو عند سيف الدولة بلسان المياسير الاغنياء ، فستجدون انه سيتكلم بعد تركه سيف الدولة بلسان الملوك اصحاب العبيد .—

* * *

ولكن نعمة مثل هذه النعمة لا تنجي صاحبها من حسد الحساد وكيد الكائدين وعلى الخصوص اذا كان صاحب هذه النعمة قد زاحم غيره من الشعراء عليها ، وما اكثر الشعراء الواقفين بباب سيف الدولة ، وما أعظم الفرق بين منزلتهم ومنزلة ابي الطيب ، فكان من المنتظر ان يكثر حساد ابي الطيب . وان يموت بعضهم حسداً ، وما خلا عصر من العصور من حسد الحساد وكيد الكائدين .

فلننقصّ انباء الذين آلمهم ان يكون ابو الطيب في ظلال سيف الدولة .

منهم السري الرفاء فقد ذكروا انه لما سمع بيت المتنبيّ .

وخصر تثبت الابصار فيه كأن عليه من حدق نطاقا

قال : هذا والله معنى ماقدر عليه المتقدمون ، ثم انه حم في الحال حسداً وتحامل الى منزله ومات بعد ثلاثة ايام .

ومنهم ابو العباس النامي ، فقد ذكروا ان سيف الدولة كان يميل اليه ميلاً شديداً الى ان جاءه ابو الطيب فمال عنه اليه ففاظ ذلك ابا العباس ، فلما كان ذات يوم خلا بسيف الدولة وعانبه وقال : الامير لمَ يفضل عليّ ابن عيدان السقاء ؟ فأمسك سيف الدولة عن جوابه ، فلج وألح عليه وطالبه بالجواب ، فقال : لانك لا تحسن ان تقول كقوله :

يعود من كل فتح غير مفتخر وقد اغذ اليه غير محتفل

فنهض من بين يديه مغضباً واعتقد ان لا يمدحه ابداً ، وابو العباس هذا هو القائل كان قد بقي من الشعر زاوية دخلها ابو الطيب .

ومنهم ابوفراس الحمداني فقد ذكروا انه قال لسيف الدولة : ان هذا المتشدق بعني المتنبيّ كثير الادلال عليك وانت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار عن ثلاث قصائد ويمكن ان نفرق مائتي دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فأثر هذ الكلام في سيف الدولة وعمل فيه وكان ابو الطيب غائبًا فبلغته القصة ولما حضر دخل على سيف الدولة وانشده هذه الابيات :

الا ما لسيف الدولة اليوم عاتبًا فداه الورى امضى السيوف مضاربا
ومالي اذا ما اشتقت ابصرت دونه ثنائف لا اشتاقها وسباسبا
وقد كان يدني مجلسي من سمائه احادث فيها بدرها والكواكبا
حنانيك مسؤولا ولبيك داعيًا وحسبي موهوبًا وحسبك واهبا
اهذا جزاء الصدق ان كنت صادقًا اهذا جزاء الكذب ان كنت كاذبا
وان كان ذنبي كل ذنب فانه محا الذنب كل المحو من جاء تائبا

فاطرق سيف الدولة ولم ينظر اليه كعادته فخرج المتنبي متغيراً وحضر ابو فراس وجماعة من الشعراء فبالغوا في الوقيعة في حق المتنبئ وانقطع ابو الطيب بعد ذلك ونظم القصيدة التي اولها :

واحر قلباه ممن قلبه شبم

ثم جاء وانشدها وجعل يتظلم فيها من التقصير في حقه بقوله :

مالي اكتم حبًا قد برى جسدي وتدعي حب سيف الدولة الامم
ان كان يجمعنا حب لغرته فليت انا بقدر الحب نقتسم
قد زرنه وسيوف الهند مغمدة وقد نظرت اليه والسيوف دم

فهم جماعة بقتله في حضرة سيف الدولة لشدة ادلاله واعراض سيف الدولة عنه فلما وصل في انشاده الى قوله :

يا اعدل الناس الا في معاملتي فيك الخصام وانت الخصم والحكم

قال ابو فراس قد مسخت قول دعبل :

ولست ارجو انتصافاً منك ماذرفت عيني دموعًا وانت الخصم والحكم

قال ابو الطيب :

اعيذها نظرات منك صادقة ان تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

فعلم ابوفراس انه يعنيه فقال : ومن انت يادعي كندة حتى تأخذ اعراض الامير فاستمر في انشاده ولم يرد عليه الى ان قال :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا بانني خير من تسعى به قدم
انا الذي نظر الاعمى الى ادبي واسمعت كلماتي من به صمم

فزاد ذلك ابا فراس غيظاً وقال : قد سرقت هذا من عمرو بن عروة بن العبد حيث يقول :

اوضحت من طرق الآداب ما اشتبكت دهراً واظهرت اعراباً وابداعا
حتى فتحت باعجاز خصصت به للعمي والصم ابصاراً واسماعا

ولما انتهى ابو الطيب الى قوله :

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

قال ابو فراس : وماذا ابقيت للامير اذا وصفت نفسك بالشجاعة والفصاحة والرياسة والسماحة تمدح نفسك بما سرقته من كلام غيرك وتأخذ جوائز الامير اما سرقت هذا من الهيثم بن الاسود النخعي الكوفي المعروف بابن العريان العثماني .

انا ابن الفلا والطعن والضرب والسرى وجرد المذاكي والقنا والقواضب

فقال ابو الطيب :

وما انتفاع اخي الدنيا بناظره اذا استوت عنده الانوار والظلم

فقال ابو فراس :

وهذا سرقته من قول معقل العجلي .

اذا لم أميز بين نور وظلمة بعيني فالعينان زور و باطل

ومنه قول محمد بن احمد بن ابي مرة المكي :

اذا المرء لم يدرك بعينه ما يرى فما الفرق بين العمي والبصراء

حتى غضب سيف الدولة من كثرة مناقشته في قصيدته هذه ودعا به فيها فضربه بالدواة التي بين يديه فقال ابو الطيب :

ان كان سركم ما قال حاسدنا فما لجرح اذا أرضاكم ألم

فقال ابو فراس : هذا أخذته من قول بشار .

اذا رضيتم بان نجفى وسركم قول الوشاة فلاشكوى ولاضجرا

ومثله قول ابن الرومي :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اذا ما الفجائع اكسبنني رضاك فما الدهر بالفاجع

فلم يلتفت سيف الدولة الى ما قاله ابو فراس واعجبه بيت المتنبيء ورضي عنه في الحال وادناه وقبّل رأسه واجازه بالف دينار ثم اردفها بالف اخرى ..

لم يقتصر ايلام ابي الطيب على الشعراء انفسهم وانما تعدى الشعراء الى بعض رجال اللغة ممن كان يضعّف اقوالهم في حضرة سيف الدولة .

من هؤلاء اللغويين ابو عبد الله بن خالويه النحوي فقد حكوا انه جرت مسألة في اللغة في حضرة سيف الدولة تكلم فيها ابن خالويه النحوي مع ابي الطيب اللغوي وكان المتنبيء حاضراً فضعّف المتنبيء قول ابن خالويه فاخرج ابن خالوية من كمه مفتاحاً حديداً ليلكم به المتنبيء ، فقال له المتنبيء اسكت ويحك فانك اعجمي واصلك خوزي فمالك وللعربية فضرب المتنبيء بذلك المفتاح وأسال دمه على وجهه وثيابه فغضب المتنبيء من ذلك اذ لم ينتصر له سيف الدولة لاقولاً ولا فعلاً .

فتصوروا مقدار ايلام المتنبيء لهؤلاء الرجال حتى ان واحدهم لم يستطع ان يملك نفسه ، ويضبط حركته في ساعة الغضب فيعمد الى اللكم والضرب وهذا منتهى الغيظ .

وقد كان لهذه الامور كلها اثر في شعر ابي الطيب ولئن شكا الحسد وهو في غشونة من العيش ، فاخلق به ان يضجر من حسد الحساد وهو ينقلب في ظلال النعيم فما غفل الحساد عن المتنبيء وهو في حضرة سيف الدولة ، ولا غفل المتنبيء عن شكوى الحسد فمن قوله لسيف الدولة :

ازل حسد الحساد عني بكبتهم فانت الذي صيرتهم لي حسداً

ومن قوله له :

فابلغ حاسدي عليك اني كبا برق يحاول بي لحاقا

ومن قوله :

أعادي على ما يوجب الحب للفتى وأهدأ والافكار فيّ تجول

سوى وجع الحساد داو فانه اذا حل في قلب فليس يحول

ولا تطمعن من حاسد في مودة وان كنت تبديها له وتنيل

من هذا كله يتبين لكم ان ابا الطيب قد استمر في شكوى الحسد ، ولقد اشتد حسد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الناس اياه وهو في ظلال سيف الدولة واشتدت الوقيعة فيه واخذ سيف الدولة يعبث به بعد ذاك الاكرام ، من ذلك ما حكاه ابو الفرج الببغا قال :

اذكر ليلة وقد استدعى سيف الدولة بدرة فشقها بسكين الدواة ، فمد ابو عبد الله ابن خالويه طيلسانه فحثى فيه سيف الدولة صالحاً ومددت ذيل دراعتي فحثى لي جانباً والمتنبيء حاضر وسيف الدولة ينتظر منه ان يفعل مثل فعلنا فما فعل ، فغاظه ذلك فنثرها كلها على الغلمان فلما رأى المتنبيء انه قد فاته زاحم الغلمان يلتقط معهم فغمزهم عليه سيف الدولة فداسوه وركبوه وصارت عمامته في رقبته فاستحى ومضت به ليلة عظيمة فخاطب ابو عبد الله بن خالويه سيف الدولة في ذلك فقال : يتعاظم تلك العظمة و ينزل تلك المنزلة لولا حماقته .

فصعب على ابي الطيب بعد هذه الامور كلها ان يستمر في حاشية سيف الدولة ، الشعراء يحسدونه و يوقعون فيه ، و يضربونه ، وسيف الدولة يهزأ به و يعبث ، وكان المتنبيء يشكو من سيف الدولة ، وكان سيف الدولة يتغاظ من تعاظم المتنبيء و يجفو عليه اذا كلمه والمتنبيء يجيبه في اكثر الاوقات و يتغاضى في بعضها .

نعم كان يصعب على ابي الطيب ان يواظب على مجلس سيف الدولة بعد ان وقع بينه وبين الشعراء ما وقع فما وسع ابا الطيب الا مفارقة سيف الدولة وذلك في سنة ست واربعين وثلثمائة فتكون مدة ملازمته له تسع سنين .

ولما عوتب المتنبيء في ترك سيف الدولة ومدح كافور قال :

حذرناه وانذرناه فما نفع فيه الحذر ، البيت القائل فيه :

ابا الجود اعط الناس ما انت مالك ولا تعطين الناس ما انا قائل

فهو الذي اعطاني لكافور بسوء تدبيره وقلة تمييزه .

دمشق : في ٢٩ آذار سنة ٩٣٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net